

2008

## البعء الشرعي الإبداعى فى سردىات ابن الموقت من خلال رحلته المراكشفة

محمء الطوكى

كلفة الآءاب والعلوم الإنسانفة مراكش، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Comparative Literature Commons](#)

### Recommended Citation

"البعء الشرعى الإبداعى فى سردىات ابن الموقت من خلال رحلته المراكشفة", الطوكى, محمد (2008) *Dirassat*. Vol. 13 : No. 13 , Article 6.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol13/iss13/6>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in *Dirassat* by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aaruedu.jo](mailto:rakan@aaruedu.jo), [marah@aaruedu.jo](mailto:marah@aaruedu.jo), [u.murad@aaruedu.jo](mailto:u.murad@aaruedu.jo).

---

## البعد الشرعي الإبداعي في سرديات ابن الموقت من خلال رحلته المراكشية

### Cover Page Footnote

محمد بن محمد عبد الله الموقت: الرحلة المراكشية، أو مرآة المسلوئ الوقتية، ويسمى أيضا السيف المسلول على 1-المعرض عن سنة الرسول، طبعة مصطفى البابي الحلبي سنة 1351/م1933-2 لا يزال في الشرق في هذه الفترة 1934-تيار محافظ يرفض الجنس السردي ويعتبره مسلاة للأطفال ، ولغوا من القول ينبغي أن ينأى عنه الكبار. ويكفي الشرقي دهر الدهاريز قضاه في اللهو والغثيان وهو اليوم بحاجة إلى ما يستنهضه ويدفعه لارتداد آفاق التقدم. ومن متزعمي ومن متزعمي هذا التيار الرافعي يقول : لن أنقل إلى كتابتي دواب الأرض، أو دواب الناس أو دواب الحوادث ، فان الكتب ليست شيئا غير طبائع كتابها، تعمل فيمن يقرأها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها، والرواية إذا وضعها كاتب فاجر، فهي عندي ليست رواية بل هي عمل يجب أن يسمى في قانون العقوبات فجورا بالكتابة. مصطفى صادق الرافعي : فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها؟ الرسالة العدد 4-48 يونيو 1934. 3-قال الموقت عنها : وقد دطرنا جميع مقالاته التي بلغنا في رحلتنا المسماة "الترجمة" بأبسط من هذا، الرحلة المراكشية 1-156

## البعد الشرعي الإبداعي في سرديات ابن الموقت من خلال رحلته المراكشية

محمد الطوكي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مراكش

إن العقد الثالث من القرن العشرين الذي أنجز خلاله هذا العمل، الرحلة المراكشية<sup>(1)</sup> لمحمد بن محمد بن عبد الله الموقت (1894 - 1949)، قد مثل في تاريخ الأدب المغربي الحديث زمان الشعر بامتياز، إنشاء وإبداعا ونقدا، أما النثر الفني الذي ارتجت أرضيته بمناوشة فنون مستحثة شكلا ومضمونا، فقد ظل يستأثر بالدرجة الثانية من اهتمام المبدعين والنقاد<sup>(2)</sup> والمتلقين. في هذا المناخ كانت المبادرات السردية الأولى تشق طريقها وتبدأ وسط مناخ سياسي وسوسيوثقافي، لا يمكن استبعاد دوره في تبرعم تلك الفسائل السردية المغربية الرائدة.

وتدخل الرحلة المراكشية ضمن تلك المحاولات، فقد نشرت بالقاهرة سنة 1933 في ثلاثة أجزاء ضمنها مجلد واحد، في أوراق من القطع المتوسط، بلغ عدد صفحاتها 530، وقد أعقبتها رحلات أخرى لنفس المؤلف وهي:

- أصحاب السفينة (القاهرة 1935).

- الرحلة الأخروية في جزأين (فاس 1946).

- الرحلة الترجمانية<sup>(3)</sup>.

(1) محمد بن محمد بن عبد الله الموقت: الرحلة المراكشية، أو مرآة المسلوئ الوقتية، ويسمى أيضا السيف المسلول على المعروض عن سنة الرسول ﷺ، طبعة مصطفى البابي الحلبي سنة 1351 هـ / 1933.

(2) لا يزال في الشرق في هذه الفترة - 1934 - تيار محافظ يرفض الجنس السردى ويعتبره مسلاة للأطفال، ولغوا من القول ينبغي أن ينأى عنه الكبار. ويكفي الشرقي دهر الدهارير قضاءه في اللهو والغثيان، وهو اليوم بحاجة إلى ما يستهضه ويدفعه لارتداد آفاق التقدم، ومن متزعمي هذا التيار الرافعي يقول: لن أنقل إلى كتابتي دواب الأرض، أو دواب الناس أو دواب الحوادث، فإن الكتب ليست شيئا غير طبائع كتابها، تعمل فيمن يقرأها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها، والرواية إذا وضعها كاتب فاجر، فهي عندي ليست رواية بل هي عمل يجب أن يسمى في قانون العقوبات (فجورا بالكتابة). مصطفى صادق الرافعي: فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها... 9.

الرسالة العدد 48 - 4 يونيو 1934.

(3) قال الموقت عنها: «وقد ذكرنا جميع مقالاته التي بلغنا في رحلتنا المسماة «الترجمانة» بأبسط من هذا» الرحلة المراكشية 156 / 1.

والرحلة موضوع مداخلتنا، تمثل بحق مرحلة حاسمة من حياة ابن الموقت، فقد أعاد النظر في أفكار ورؤى سابقة، وجدد لنفسه أصولاً فكرية إسلامية أخرى التزم بها قناعة وسلوكاً، وأصبح يرى العالم من خلالها، يدعو إليها، ويناضل ويناضل من أجلها. كما أن الرحلة تعتبر صورة مستأمنة واعية لجوانب من الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي للعصر. وتدرج من حيث موضوعها ضمن الأعمال الإصلاحية التي وضعت الأصبع في الجرح، وأثارت بعض المشاكل الحارقة، وكان من الطبيعي أن تختلف طرق وأساليب تقبلها، التي ركزت على مناقشة مضمونها وأفكارها، من غير إغارة أي اهتمام لكيفية التعبير عن ذلك المحتوى، لقد أفلح ذلك الشكل السرد في تبليغ المضمون إلى جمهور عريض. ولقد أتت أعنف الردود من المتصوفة والمتفكرة الذين اعتادوا الحكى والقص واعتبروه «جنداً من جنود الله يثبت الله بها قلوب العارفين من عباده»<sup>(4)</sup> فسلوا عليه وعلى عمله الصواعق والسيوف، وأثاروا عليه أتباعهم ومريديهم من الخاصة والعامه. وترسبات تلك الأيام لا تزال حاضرة إلى اليوم، فمجرد ذكر الرجل يثير لدى بعض الأوساط حساسيات. وأقل ما قيل في حقه: إنه شخصية قلقة مضطربة، ولربما وسم بالجنون.

وعلى كل فإن ابن الموقت لم يكن بدعاً في هذا التوجه، أعني استبدال وعي بوعي جديد، قد سبق إلى ذلك بأعلام، وجابله شخصيات، وأعقبها أخرى، وتلك سنة الله في كونه، مما يجعلنا نعلل ذلك بما أسماه L. Goldman بالشعور أو الإحساس الجمعي، «ومن مميزاته أن يكون مصحوباً بالشعور العائلي والمهني، الوطني والطبقي... الخ، وهذا الأخير هو الشعور العام الملاحظ في ميول وآمال وتفكير أعضاء طبقة اجتماعية معينة. ميل ينمو بالضبط انطلافاً من وضعية اقتصادية واجتماعية تؤديان إلى توليد ديناميكية ونشاط يصبح معها الإنسان هو نفسه المجتمع»<sup>(5)</sup>، والوعي بهذا الشعور يختلف من شخص لآخر، ولا يبلغ ذروته إلا لدى بعض الأفراد الاستثنائيين، أو عند جل أعضاء الطبقة خاصة في لحظات حاسمة؛ ك لحظة حرب وطنية أو ثورة طبقية... الخ<sup>(6)</sup>.

(4) أحمد بن المامون البلغيتي: شرح الابتهاج بنور السراج: مطبعة أفندي مصطفى القاهرة 1319 هـ / 2 / 177 والفقرة الكاملة: قال المواق في سنن المهتدين حدثنا شيخنا المنثوري بسنده إلى أبي العباس بن العريف قال كنت في مجلس أستاذي أبي علي الصدفي أقرأ عليه الحديث، فقرأ يوماً الحديث، ثم أغلق الكتاب وجعل يحكي حكايات الصالحين، فوقع في نفسي، كيف يجيز الشيخ أن يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحكي الحكايات، قال: فما أتم لي هذا الخاطر حتى نظر إلي الشيخ شزراً، وقال لي: يا أحمد الحكايات جند من جنود الله، يثبت الله بها قلوب العارفين من عباده. فما بقي في جسدي شعرة إلا قطر منها العرق، فلما رأني دهشت قال لي: يا أحمد أين مصداق ذلك من كتاب الله، قلت الشيخ أعلم، وقال: وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك...

(5) هذا المفهوم الاجتماعي الجدلي يختلف عن المفاهيم التقليدية لعلم النفس وعلم الاجتماع.

(6) L. Goldman : Le Dieu caché Ed. Gallimar 1959/p. 27.

والزمان المغربي الذي عاشه ابن الموقت. ابتداء من العقد الأول من القرن العشرين وماتلاه، اعتملت فيه مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية أدت من جملة ما أدت إليه، إلى بلورة الشعور الوطني المرتبط بأصول سلفية. «لقد ارتبطت السلفية في بلد المغرب ارتباطا وثيقا بالحياة العملية السياسية ولعبت دورا أساسيا في مناهضة الاستعمار... وقد استطاعت السلفية المغربية نتيجة لارتباطها بهذا البعد الوطني، استطاعت في الثلاثينيات أن تلعب دورا إيجابيا. تمثل في تحريك مجموع فئات المجتمع المغربي وزرع بذور الوعي الجديد»<sup>(7)</sup>.

وإذا عدنا إلى الرحلة التي تعكس ما أسميناه بالوعي الجديد، فإننا نجد ابن الموقت يصنفها من حيث شكلها ضمن الجنس السردى، يقول «يا ليت شعري ما الذي أصابها - أمتنا - حتى غضت النظر عن القصص التي قصها وأهملت أمرها، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيده إلا المؤرخين.

القصص في كل أمة عليها مدار ارتقائها، سواء كانت وضعية أم حقيقية؛ على السنة الحيوان أو الانسان أو الجماد، على هذا تبحث الأمم قديمها وحديثها، وناهيك بكتاب كليله ودمنة، وما والاه من القصص الناسجة على منواله في الإسلام؛ ككتاب فاكهة الخلفاء ومقامات الحريري، وإن حاد بعضها عن سواء الطريق والجادة وطغى فخلط الجد بالهزل؛ ككتاب ألف ليلة وليلة، الذي استخلص زبدته الغربيون. كل يعلم ما صنعت الروايات في عقول الغربيين من التأثير، وأخذهم منها بالأحسن من الكلام والأجمل من الأفعال، وكيف يسمعون ويعقلون. في القرآن قصص تسرد؛ ووقائع الأنبياء وفضائل الأولياء وعجائب أعمالهم وغرائب أحوالهم؛ ليقيس المشاهد المنظور على الغائب المستور، والحاضر الظاهر على الغائب الفائق؛ فغل الناس عن ذلك كله، وناموا على وساد الراحة ومهاد الغفلة حتى أصبح المسلمون في أنحاء المعمورة يمتازون بأنهم مسبقون في المدنية والعمران، جاهلون بالمنافع المادية والمعنوية، خاضعون للظالمين مقلدون، والمقلد جاهل والجاهل غافل والغافلون هم الهالكون»<sup>(8)</sup>.

فهذا النص مهم، نظرا لأن هذا الفقيه الأديب يتحدث فيه عن مفهومه للسرد، إنه نص غني، فبالإضافة إلى داعي استشهادنا به، فإنه يثير قضايا تتعلق بالفن السردى والنقد، إضافة إلى التلميح إلى المرجعية المعرفية لمضمون الرحلة، فهو يحيلنا.

(7) الحمداني حميد: الرواية المغربية دار الثقافة - المغرب الطبعة الأولى 1985، ص 98.

(8) محمد بن محمد الموقت: الرحلة المراكشية ص 162/3.

1 - على بعض المراجعيات السردية التي عكف ابن الموقت على قراءتها وتمثلها قبل مغامرته في كتابته السردية، ولا شك أنها استفادت منها وتنامت معها، وقد تنوعت تلك المقروءات، واستفادت من المقدس؛ القرآن الكريم، والإنتاجات العربية القصية العالمية؛ كليلة ودمنة، وفاكهة الخلفاء والمقامات، ومن الثقافة الشعبية ونموذجها ألف ليلة وليلة؛ ويرى في مضمون هذه الأخيرة مجانفة للجادة حيث اختلط فيها الجد بالهزل؛ وهو في هذا الحكم على السرد الشعبي، وخاصة ألف ليلة وليلة، يتفق من جهة مع ما جاء في مجلة المقتطف المصرية التي «أعلنت صراحة استغرابها للاهتمام الذي أولاه بعض الكتاب لحكايات ألف ليلة وليلة، داعية هؤلاء إلى الاهتمام بالعلوم والأفكار الحديثة التي لها فعلها في المجتمعات الأوروبية»<sup>(9)</sup>.

وبغض النظر عن مضمون بعض حكايات ألف ليلة وليلة، فإن ابن الموقت، من جهة ثانية، لا ينكر ضمناً تقنيات السرد فيها، وقد استفاد منها في رحلته، وموقفه النقدي أكثر وعياً مما جاء في المقتطف، حيث حاكم المضامين واستفاد من إطار الحكيم وأساليبه وشحنه بمضامين إصلاحية، فالحكي بالنسبة إليه وسيلة للتسرية عن النفس وسبيل إلى المعرفة. ولا غرابة في ذلك، فقد تربى كاتب الرحلة في أسرة كانت تحتفي بالأدب الشعبي، وكان جده رمزا من رموز فن الملحون، وزازيته أشهر من نار على علم.

2 - الإشارة الجمالية للنص السردية، وتتمثل عنده في الصياغة، حسن الكلام والغرابة والعجائبية والتخييل.

3 - نقد السرد، انطلاقاً من مقولات نقدية خاصة بفن الشعر، وخاصة مقولة التطهير، وتعني في هذا السياق، التخلص من وصمة التخلف وارتداد فضاءات التقدم التي أخطأها المسلمون، بينما قطع فيها الغربيون أشواطاً بعيدة، ويؤكد نفس الرأي في معرض حديثه عن الدور الإصلاحي الذي على الأديب أن يلتزم به يقول: «وإذا رأوا - أي الأدباء - في أمتهم عادات يابها سليم الذوق، أو وجدوا منها أخلاقاً وأعمالاً لا تتفق مع شريعة الفضل ولا مع قوانين الشرع، عمدوا إلى تغيير العادات وتطهير الأعراف، وأخذوا في ذلك سبلاً متنوعة في إنشاءاتهم؛ تارة بالقصص والحكايات التي تمثل شناعة الرذيلة وبهاء الفضيلة، وما آل إليه أمر المتدنيين بالأولى، وما ارتقى إليه حال المتحلين بالثانية... كصنيعنا في هذه الرحلة المراكشية»<sup>(10)</sup>.

(9) د. محسن جاسم الموسوي: الرواية العربية، النشأة والتحول. «طأ الهيئة المصرية العامة للكتاب 1988، ص 49.

(10) محمد بن محمد الموقت: الرحلة 134/2.

وكل عمل فني لا ينهض عنده بهذه الوظيفة الإصلاحية، فإنه لا يستحق اسم الأدب يقول: «ومنهم من تظاهر بمجموع قصص تتلى للفكاهة أو أساطير تنقل في المسامرات... فإن هذا لا يتصل بمعنى من معاني الأدب»<sup>(11)</sup>.

ولقد رفضت من ذي قبل أعمال روائية شرقية انطلقا من هذا البعد النقدي الأخلاقي، وكتب آنذاك حبيب بنوت في مجلة المقتطف - 1891 - مقالا ذكر فيه أن هذا الجنس الأدبي الطريف لن يتقبل إلا «يوم يتقدم الفن وتتمو رغبة الكتاب في إتقانه، فلا يقتصرون على ذكر الغرام والهيام واللقاء والفراق، وسائر ما يتعلق بأحوال العشاق، بل ينظرون إلى ما به تهذيب الطبع، وإصلاح العادات، وترقية الأخلاق»<sup>(12)</sup>.

وبما أن الهم الذي حملته الرحلة هو اقتراح سبيل للإصلاح، والخروج من الجمود والتخلف والانحطاط، فإن أسلوب الحكيم الذي قدم به هذا الفقيه الأديب رؤياه الإصلاحية ساعده على توسيع دائرة الجمهور الذي سيتلقى عمله. «فالأدباء في الحقيقة هم سياسة لأخلاق الأمم... فإنهم بما يعملون من طرق التفهيم، يمكنهم أن يقربوا إلى العقول ما يبعد عن إدراكها، ويسهلوا على الأذهان ما يعسر عليها النظر فيه، ويعبروا عن المعنى الواحد بالطرق المختلفة؛ فتستفيد منه العامة ولا تتكره الخاصة... وأخذوا في ذلك سبلا متنوعة في إنشاءاتهم؛ تارة بالقصص والحكايات التي تمثل شناعة الرذيلة وبهاء الفضيلة، وما آل إليه أمر المتدنيين بالأولى، وما ارتقى إليه حال المتحلين بالثانية... كصنيعنا في هذه الرحلة المراكشية»<sup>(13)</sup>.

وقد استفاد في هذه الرؤية الجامعة بين الإصلاح والقالب السريدي، من أعمال أشرنا إليها، وأخرى شرقية تقدمت رحلته، إذ دعت ملابسات النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى ظهور «المقامة» تلبية لدعوتي التسلية المشفوعة بالوعظ والإصلاح الاجتماعي. ولهذا كانت (مجمع البحرين) لناصف اليازجي، و(الساق على الساق...) لأحمد فارس الشدياق في الشام في النصف الثاني من القرن الماضي، تقترب (حديث عيسى بن هشام) للمويلحي، و(ليالي سطيج) لحافظ إبراهيم في مصر، وبمقامات أبي التياء الألويسي في العراق. وجميعها تلبية حاجة اجتماعية سياسية وترفيهية في آن واحد»<sup>(14)</sup>. وقد تذرع ابن

(11) محمد بن محمد الموقت: الرحلة 133/2.

(12) د. محسن جاسم الموسوي: المرجع نفسه، نقلا عن المقتطف المجلد الخامس عشر 1891، ص 49.

(13) محمد بن محمد الموقت: الرحلة 134/2.

(14) د. محسن جاسم الموسوي: المرجع السابق ص: 55 - 56.

الموقت إلى إقناع قارئه والتأثير فيه بطريقتين، الأولى فنية والثانية اصطلاح فيها العقل والشرع، مثل قياس الشاهد على الغائب؛ إذ لا يصلح حاضر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. وإذا أخذنا بعين الاعتبار قصدية ابن الموقت في سردياته الجامعة بين البعدين الفني والشرعي، ووضفناهما إلى جانب المناسب من تقنيات السرد المعاصرة، فإن ذلك سيعمق قراءتنا وتأويلنا.

يمكن تلخيص هذه الرحلة انطلاقاً من مفهوم المقطوعة السردية؛ التي هي عبارة عن وحدة خطابية تجري مجرى القصة القصيرة، ومفهوم الفضاء (السردية وهو هنا خارج المدينة تارة وداخلها تارة أخرى، ومفهومي الفاعل المنفذ - Sujet-Opérateur والموضوع. أقول من خلال كل ذلك يمكن تلخيصها في قسمين كبيرين.

ماجريات خارج المدينة من ص 2 إلى ص 11 من الجزء الأول من الرحلة:

يظهر الراوي، ابن المؤقت، مبلب الخاطر، يطوي الوعر والسهل، متنقلاً من مكان إلى آخر، راغباً في الالتحاق بالطائفة الناجية، باحثاً عن يأخذ بيده، ويكفيه شرماً هو فيه من ضيف التقليد؛ ولوثة المتابعة بغير دليل، وبينما هو كذلك «إذ ظهر في الفلا، غيار قد علا، فأعجزني كونه، وأزعجني لونه، فرقبته على تل رقبته، وحسبته أمراً خشيته، فانقشعت سحب حجبته، عن رجل أخبرتني مهجته، عن صدق بهجته، وأن له باعاً في العلم طويل» ج 1 - ص 3، لقد كانت تلك الحيرة نابعة من وعيه بسخافة التقليد، وبظفره بهذا الرفيق السلفي الذي استجمع شروط الاجتهاد، سيسمو الراوي من دركات التقليد ويرتاد يفاع الاجتهاد، فاتفقا على المسير نحو مدينة فاضلة تتماشى مع رؤيتهما، فحزرا أن تكون تلك المدينة مراكش، وبمجرد الاقتراب من أسوارها تسمعا عن كذب من حديث شابين من أبناءها ما خيب أفق ظنهما، وأنها لا تختلف في شيء مما فر منه الراوي. ومن ثم عزما على دخول المدينة واقتحام مغامرة الإصلاح. لكن كيف يتسنى ذلك، من يأخذ بأيديهم ويدلها على مسالكها ويعرفهما بساكنتها؟ وبغثة ظهر لهما رجل نازح منها خائف فار بخويصة نفسه من درن مناكرها. فالفاعل في هذه اللحظة - بالنسبة للرجل - هو المجتمع بأعرافه وتقاليده، ومن لم يرضخ لأوامره، فإنه يحكم عليه بالإقصاء والنفي، كما هو شأن عبد الباسط الذي سيتعرفان عليه، والذي سيغدو قناة تواصلهما مع المجتمع فيما بعد، وبعد استئناسهما به واطمئنانه إليهما، طلباً منه تعريفهما بمدينة طيبة وتاريخها ونفسية ساكنة، فاستجاب مؤسساً خطابه التقريرية على ثنائية جلال الماضي وأفضليته، وسوء





### أولاً: الإيحاءات الشرعية والقصية للعنوان:

المؤلف، كما يقول الأسلوبيون، نموذج لقارئ النصوص، وإن اختياره لعنوان ما يعد إخباراً عن الوقائع الأدبية البارزة أو اللاحقة لنظره دون غيرها، وتأسيساً على ذلك نرى ابن الموقت يضعنا أمام ثلاثة عناوين مفصول بين الأول والثاني بحرف العطف - أو - الدالة على التخيير، الرحلة المراكشية أو المساويء الوقتية، وفصل بين الثاني والثالث بجملة فعلية يدل مضمونها على التخيير، ويسمى أيضاً السيف المسلول على المعرض عن سنة الرسول، ولم يصطنع ذلك اعتباطاً ومجازفة، بل راعى في تلك الصيغ عدة اعتبارات، منها ما هو إيقاعي ويتمثل في السجع بين مراكشية ووقتية، والمسلول الرسول، ومنها ما هو دلالي كالمراة المستعارة للنص الذي يشبهها في كونه يعكس الأحداث والوقائع المسرودة، والسيف المسلول المستعار للحجج القامعة للمبتدعين. أما من الناحية التركيبية فقد أثر ابن الموقت الجمل الاسمية على الفعلية لدلالاتها على التأكيد وإضفاء الوثوقية على دعواه. وجميع هذه الاعتبارات المراعاة في العنوان موجهة بالأساس إلى المتلقي المفترض؛ تلفت نظره وتشده إلى تناول العمل ومباشرة قراءته، ومن خلال ذلك نتبين أنه يطمح لقراءة الرحلة في جمهور عريض، منهم من تعنيه متعة السرد، وإليهم توجه بعنوان الرحلة المراكشية، وهناك من يعنيه الحدث الاجتماعي أو التاريخي وإليهم قصد، بمرآة المساويء الوقتية، وهناك القارئ المتفقه الذي يعنيه أمر البدع وموقف الشرع منها، وقد خوطب بالسيف المسلول على المعرض عن سنة الرسول.

ومن خلال هذه العناوين المقترحة نرى تداخل مستويات إبداعها وتواشجها. فالرحلة تحيل على الفعل التخيلي، والواقع ترمز إليه المساويء الوقتية، والشرع تحيل عليه عبارة السيف المسلول على المعرض عن سنة الرسول.

وحتى على مستوى التخييل الذي ترمز له كلمة رحلة، فإننا نجد مجاله الدلالي مشبهاً بسمات شرعية، وأحكام فقهية انزاحت عن المؤلف من القواعد، ولا بد من استحضارها أثناء التحليل.

فإذا كانت الرحلة في اللغة مفارقة للإقامة التي تدل على ارتباط الإنسان ببلده ما، وخلق علاقات مع أشخاصه وأشياءه، وممارسة آمال وأحلام يقظته بين حناياه، والشعور داخله بالدفع والطمأنينة والأمن، فالرحلة اقتلاع من تلك التربة وركوب المغامرة، ومجال تداولها في الثقافة العربية جد متسع، حيث ترددت في مواطن اقتصادية وسياسية واجتماعية ومعرفية، إلى حد أنها أصبحت ظاهرة أو إستيمية ملازمة، مقترنة بالغرابة والإبداع

والتجدد والتحول، ففي المجال المعرفي مثلاً رافقت الرحلة الشعر العربي منذ أن قصده مقصده، وقدمت للإبداع دفقة إبحائية سرى نبضها في مختلف أوصاله، وصاحب القصيدة العربية من يوم تخلقها، ولا زال شعراؤنا المعاصرون يشققون دلالات جديدة من الرحلة وما تفضي إليه من الغربية والمغامرة<sup>(15)</sup>... إلخ، كما أن تأسيس العلوم شرعيها ولغويها وعقليها وعمليها مرتبط بالرحلة، ونظراً لهذا التواتر فقد اعتبرها ابن خلدون مدمكا أساسيا في تحصيل العلم وتحمله، ومن ارتحل زاد مزية وفضلا على من لم يرتحل، وفي السرديات اقتترنت الإقامة بالضحالة والفقر، والترحال بالثراء، وخير مثال على ذلك السندباد البحري والسندباد البري في ألف ليلة وليلة. وبما أن الرحلة مظنة للمغامرة واستهداف المخاطر، فقد أحاطها المشرع بمجموعة من الضوابط الفقهية والأخلاقية الموحية بخطورة تلك التجربة، كوداع الأهل والأخصاء، وترك الزاد الكافي للزوجة والأبناء، ووصية من يقوم مقام المرتحل في تفقد أحوالهم والسهر على مصالحهم، واختيار الرفيق قبل الطريق، والتأشير في السفر، وبما أنها خارجة عن المألوف فقد خصت بأحكام فقهية، كالقصر في الصلوات الرباعية، والإفطار في رمضان، وللراجل أن يتنقل على دابته وإن كانت الوجهة مخالفة لسمت الكعبة، ومتى انتابه هاجس يشوش باله من جهة الأهل مثلاً ويؤثر على الهدف من الرحلة، فعليه أن يطرده عنه باستصحاب الحال؛ فقد تركهم في أحسن حال وفي يد آمنة، فذلك الوضع المطمئن ينبغي استصحابه إلى الوقت الراهن، وأجازت بعض المذاهب لأتباعها التمتع بما يسمى بزواج المسيار، وإذا تهيأ للعودة من رحلته فيستحب له أن يخبر الأهل بمقدمه، وأن حل بموطنه ليلاً من غير إخبار فلا يدخل بيته، وعليه أن يستهل مقدمه بالصلاة في المسجد، وللأصدقاء أن يستقبلوه من غير أن يستأنسوا بالحديث معه، فهو حامل أخبار وعجائب ومغرم، والأهل أولى بالاستمتاع بغنمها وبطرافتها قبل غيرهم<sup>(16)</sup>.

فمفهوم الرحلة وإن صرفناه لعالم التخيل، فإنه يبقى مسكوناً بالهاجس الشرعي وكلا الوجهين لا بد من استحضارهما أثناء القيام بالقراءة والتأويل. وسنأخذ من الرحلة وحدة قصصية صغيرة توضح من خلالها ما ألمعنا إليه، إذ الرواية في جنينيتها عبارة عن عنقيد قصصية صغرى تتفجر في النهاية لتعطي القصة الكبرى. يطالعنا البطل من مستهل

(15) يقول أدونيس: الرحيل انتهى والطريق

صخرة عاشقة

إننا ندفن النهار القتل.

(16) ابن الحاج: المدخل 4 / 70.

الرحلة وقد أنهكه الترحال يعاني من قلق وتوتر، نتيجة لاستكفاه من العيش داخل عالم معقد يتميز بالانحطاط في سائر مستوياته، وفجأة وبطريقة غرائبية، على أسلوب القص الشعبي، يظفر برفيق خبير يبدد حيرته، ويعيد له برودة واطمئنانا من نوع آخر غير الذي جربه زمان طرقيته حيث سيلازمه طيلة رحلته، إنه عبد الهادي «فبينما أنا في منازعة هذه الأفكار مع ما حل بي من ترادف الأكدار، إذ ظهر في الفلا، غبار قد علا، فأعجزني كونه، وأزعجني لونه، فرقبته على تل رقيته، وحسبته أمرا خشيته، فانقضت سحب حجه عن رجل أخبرتني مهجته عن صدق بهجته، وأن له باعا في العلم طويل»<sup>(17)</sup>، ودار بينهما حوار في الهوية والتعارف، فأيقن حينئذ أن العناية الروائية ساقته له الشخص أو المجتهد الذي ظل يبحث عنه، استجمع كل العلوم لغويها وشرعيها وعقليها وفلسفيها.

فتقنيات الإبداع السردي المتمثلة في هذه اللحظة القصية تتمثل في:

1 - قلق البطل وحيرته، فهو مستتكف من واقعه، ويبحث عن عالم ذي قيم أصيلة، وطبعاً فلا إبداع من غير إحساس بهذا التعارض بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون.

إن العمل السردي «لا يظهر إلا عندما يكون هناك (استياء من القيم السائدة في المجتمع، وطموح نحو قيم نوعية جديدة؛ ولهذا عرف غولدمان L. Goldman الرواية بأنها بحث عن قيم أصيلة في عالم منحط. والرواية الإيجابية هي تلك التي تجاوزت في رؤيتها ما هو موجود في الواقع، وهذا سر القيمة الإنسانية والفنية لأي عمل إبداعي، على اعتبار أنه ليس عملاً ثانوياً في حياة الإنسان، وإنما يساهم في تأسيس المستقبل الإنساني. ولهذا فالرواية كنتاج فكري ليست ترفاً كما يراها البعض»<sup>(18)</sup>. من الاستشهاد الذي سقناه نعلم أنه يتحدث عن الرواية، والعمل موضوع البحث لم يبلغ هذا الشأو، فهو عمل سردي صنفناه في الأوليات التي ستسلمنا إلى الرواية المغربية بمعناها الدقيق، ولكن الذي عانا منه هو رفض عالم ومحاولة إنشاء عالم ترضى عنه الذات، وقد اتسمت معظم الرحلات بهذه الخصيصة، فابن جببر في رحلته انتقد من جملة ما انتقد الرشوة الشائعة، كما أن الطرطوشي حارب في كتابه سراج الملوك نقائص مجتمعه.

2 - عنصر الغرابة أو الغرائبية التي ضمنت للقص سيرورته: فبينما أنا في منازعة هذه الأفكار... إذ ظهر في الفلا غبار قد علا... الخ» وهي عجيبة من عجائب القصص

(17) محمد بن محمد الموقت: الرحلة 3 / 1.

(18) الحمداني حميد: الرواية المغربية ص 107.

الشعبي. فاضطرابه النفسي وقلقه وحيرته، قابلها في العالم الخارجي اكفهرار وعاصفة غطت فضاء السرد؛ لكن اشتداد الأزمة سرعان ما انبثق عنه انفراج، فدوام الحال من المحال.

3 - تقديم الشخصيات، شخصية عبد الهادي، والراوي.

4 - اصطناع أسلوب المقامات، وإن كان لا يلتزم به في جل عمله، وفعلا فإن هذه الفترة متأرجحة بين لحظتين، لحظة الاحتفاء بالأساليب الموشاة بالأصباغ البديعة، ولحظة التخلص منها والانفكاك من قبضتها.

أما الأبعاد الشرعية الثاوية في ذلك المقطع فتتمثل في:

1 - بناء عالم بديل عن واقع مترد، اعتمادا على رؤية سلفية تمتاح أصولها من شرع نقي لا تخالطه بدع ولا تتخلله ضلالات.

2 - اتخاذ الرفيق الخبير، أو قل الشيخ، والمشيخة هاهنا مفارقة للمشيخة الصوفية التي سينتقدوها، إنه بإزاء شيخ سلفي استجمع أدوات الاجتهاد، وقد اختار له اسما يلائم الوظيفة التي ستسند له في السرد إنه عبد الهادي، واسم الهادي والمهدي له دلالتة الدينية والسياسية في تاريخنا العربي الإسلامي، فهو يبشر بعالم جديد صالح بدل واقع مليء انحرافا وظلما. وقصدية هذه الإيحاءات ليست بغريبة على ابن الموقت المؤرخ.

3 - إن الخلفية التي تتناص مع ذلك المقطع، هي قصة موسى والخضر، لكن رفقة الموقت لعبد الهادي ستكون من نوع آخر، صحبة ولا كصحبة موسى للخضر الذي اشترط على مريده ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا، بل هي صحبة ملغومة من أولها إلى آخرها بالأسئلة المقلقة وطلب الأجوبة المعززة بالأدلة.

إن الرحلة تستلهم مضمونها وأسلوب حكيها من قصة أصحاب الكهف ومن أعمال سردية مشرقية أخرى أشرنا إليها سابقا. ولهذا فإن نهاية أبطال الرحلة نهاية درامية، لقد حاولوا إقامة عالم يذكر بعالم السلف الصالح، فلما يتسوا أو أخفقوا قرروا النجاة بخويصة أنفسهم، واعتزال الناس «ثم إننا عزمنا على أن نعود إلى ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال والبعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال، ونستلمح العزلة مدة دوامنا بهذا القطر، ونستعذب عليها الصبر، ونعيش فيها عيش الحكماء»<sup>(19)</sup>. ولقد كانت هذه هي النهاية

(19) محمد بن محمد الموقت: الرحلة 165 / 3.

المأساوية لابن الموقت نفسه. فإنه لما لم يجد لإصلاحه تحققاً، وتوالت عليه صواعق المنتقدين، فاجأهم بأمر غريب مخالف لما استقرت عليه أمور الشريعة فقال بقرب «فناء العالم وقيام الساعة... وذلك لرؤية رآها، خدرت أعصاب المغاربة ودخل الفرع والرعب قلوبهم»<sup>(20)</sup>. ترى هل كان للظرفية التاريخية التي عاشها المغرب في أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات انعكاس على هذه الخاتمة الأسيئة، فلقد عرفت هذه الفترة إجهاض ثورة عبد الكريم الخطابي التي تمالأ عليها الإسبان والفرنسيون وبرذعة من الخونة، كما أن نفس الفترة ستعرف تراجع المقاومة المسلحة للأرياف المغربية، وبعد ذلك سيصبح المغرب بين فكي الكماشة الاستعمارية، ومن ثم ستتخذ المقاومة استراتيجية جديدة.

تلك قراءة قصدنا من خلالها رصد بعض ملامح البنى الشرعية الإبداعية الثاوية وراء رحلة ابن الموقت المراكشية، وقد اعتبرناها من الإرهاسات الأولى التي ستفضي فيما بعد إلى فن روائي حقيقي وطبيعي أن تتميز بما تميز به النموذج المشرقي والذي قال عنه الناقد الروائي محسن جاسم الموسوي: «فالنصوص الكلاسيكية العربية مثلاً لا تخلو من الحكايات والأحداث والنماذج والشخصيات، وشذرات من التفاصيل الوصفية، لكنها تظل راكدة قديمة بقدر ما تحشد به من معارف مباشرة متجمدة، لم تصل إلى درجة السيولة الروائية، سواء كانت هذه المعارف تاريخية أو لغوية أو إيديولوجية، كما تظل مختلة التوزيع متباينة النسب، بعيدة عن مواصفات القصة الفنية بقدر ما ينتقصها من ضبط لإيقاع الحركة الداخلية والخارجية»<sup>(21)</sup>.

إن متطلبات الرواية الاقتصادية والاجتماعية لم تتبلور آنذاك، إذ أننا لم نبارح على مستوى الوعي ما أسماه الأستاذ العروي بمرحلة وعي الشيخ التي انعكست في مستوى الأدب والتعبير، حيث تحولت «القصيدة إلى نشيد وطني، والمقامة إلى هجاء اجتماعي، والنبذة التاريخية إلى مقالة سياسية. فلا يجوز كما يفعل البعض دراسة هذا الانتاج تحليلًا

(20) عبد الله الجراي: هذه مذكراتي 147/2 دراسة وتحقيق مصطفى الجوهري أطروحة مقدمة في كلية آداب المحمدية برسم السنة الجامعية 2000 - 2001 لازالت مرقونة. ونص البيان: إنذار من لسان سيد البشر لأهل القرن الرابع عشر. وقد من الله تبارك وتعالى على عبد من عبادته برويته ﷺ مناما، فقال له: أنذر الأقوام الضالة نياحة عني ليرجعوا عما هم فيه من وجوه الكفر والفسوق والعصيان، قبل أن يحل بهم فوق ما هم فيه من الدواهي والشدائد والعدوان، وأعلمهم بأن الساعة قد قربت، وستظهر العلامة الأولى وهي طلوع الشمس من مغربها، وذلك عام السبعين بعد الثلاثمائة والألف. ويفلق باب التوبة. وعلى رأس الثمانين سنة يرتفع القرآن من صدور الناس ويمحى من المصحف، وعلى رأس الأربعمئة بعد الألف يخرج المسيح الدجال. هنا انتهى كلام الرسول الأعظم مولانا محمد ﷺ. في هذه الوصية. فالعجل يا عباد الله العجل للأعمال الصالحة، والرجوع إلى الله من الأعمال الطالحة. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وما هو إلا قول خير البرية. عن نسخة بخط ابن الموقت.

(21) د. محسن جاسم الموسوي: المرجع نفسه ص: 142.

ونقدا دون الإشارة، ولو إشارة خفيفة، إلى وعي الشيخ المسيطر أثناء تلك الحقبة على المجتمع، يكفي في هذا الصدد التذكير بالصدقة التي كانت تجمع الشيخ محمد عبده بحافظ ابراهيم وخلييل مطران؛ لكي تتضح هذه الوحدة الفكرية المذهبية<sup>(22)</sup>.

لقد جمع الفقيه ابن الموقت بين وعي الشيخ وممارسة الأديب في حدود ما سمحت به ملابسات تجربته الإبداعية آنذاك.

(22) ذ. عبد الله العروي: الايديولوجية العربية المعاصرة المركز العربي الثقافي الطبعة الأولى 1959 ص: 217. المركز الثقافي.